الفكاهة في الروايات ودورها في السياسة
نجيب محفوظ أنموذجاً

الباحثة/ منى غربي العنزي
(باحثة دكتوراه)، قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب، جامعة الملك سعود
المملكة العربية السعودية

الفكاهة والسياسة:

إن المطَّلع على رواياتِ نجيبِ محفوظٍ، يجدها جميعها تطال السياسة بشكل من الأشكال، فإما أن تكون الرواية سياسية بحتة تتحدث عن الأحزاب والثورات، ومواقف الحكومة من الشعب مباشرة، أو لا تخلو من أن تلامس السياسة من خلسةٍ لأخرى.

فيتضح من خلال ذلك، أنَّنا أمام روائي تاريخي سياسي، يوثق لنا الثورات من ثورة ١٩١٩إلى ١٩٥٢، وهي فترة الأحزاب والليبرالية، والوفد الأقوى حزبيًا بينهما.

وفترة جمال عبد الناصر، والاهتمام الاجتماعي الحاصل في ذلك الوقت، ثم كان احتدام الأزمات الاقتصادية والسياسية بعد وفاة جمال عبد الناصر حتى ١٩٨١، تلك الفترة التي عانى منها الشعب من الانهزامات النفسية، والشعور بانخفاض قدرهم لدى الحكومة، وعدم أهميتهم.

"فقد شهد المجتمع المصري في الفترة من عام ١٩٥٢وحتى الآن تغيرات سياسية، واقتصادية، واجتماعية كبيرة، كان لها أثر عظيمٌ على الحياة الثقافيةِ والروحيةِ بهذا المجتمع سلبًا وإيجابًا، مما دفع عددًا من الباحثين في مجال العلوم الإنسانية إلى رصد هذه التغيرات، وإلقاء الضوء عليها وعلى الظواهر التي تبعتها؛ في محاولة لتقديم تفسيرات من وجهات نظرٍ متباينةٍ تختلف باختلاف الموقع الفكري للباحث".[١]

فنجد روايات نجيب تلامس الواقع المحكي، عن طريق تقمص عدة شخصيات سياسية مختلفة في المجتمع، وكيف يدير الحوار فيما بينها على اختلافها، فهذا الإخواني، والليبرالي، وهذا الاشتراكي، والحزبي...إلخ.

(١) درية شرف الدين. السياسة والسينما في مصر ١٩٦١-١٩٨١، دار الشروق: القاهرة، ١٤١٢، ص٥.

فظهرت جليًا روح الانكسارات والخيبات التي أصابت الشعب المصري في شخصيات نجيب محفوظ، وعبَّر عن ذلك اليأس والألم من خلال القفشات، والنكات والقهقهات المصوّرة لذلك الحال.

وجعلت تلك الشخصيات من عجزها، أو عجز الحكومة= أضحوكة تتسامر بها مع أصحابها؛ فكانت السياسة ديدن المجتمع المصري في ذلك الوقت؛ يتحدث فيها الكبير والصغير، والمرأة والرجل، وكأنها جزء من روتين يومياتهم.

وكانت الفكاهة تطال الحكومة وفقرها؛ الذي أثقل كاهل المواطن، فما كان منه إلا أن صنع من ذلك الواقع محتوى للضحك، فنجد حسنًا يسأل:

"أخبروني متى أكلتم اللحم آخر مرة؟

فقال حسنين ساخرًا: الحقُّ أنَّنا نسينا. دعني أتذكر قليلًا، تتخايل لعيني شريحة لحم في ظلام الذكريات، ولكن لا أدري أين ولا متى.

- وضحك حسنين قائلًا: نحن أسرة فلسفية على مذهب المعرّي.
- فتساءل حسن: من يكون المعري هذا؟ أحد أجدادنا؟
- كان فيلسوفًا رحيمًا، ومن رحمته أنه امتنع عن أكل اللحوم رحمةً بالحيوان.
- إني أدرك الآن لماذا تفتح الحكومة المدارس، إنها تفعل كي تبغّض لكم اللحوم فتأكلها دون منافس"[1]. فيصور لنا نجيب سوء ظن الشعب البسيط بالحكومة، وكيف يراها البعض دولةَ جشعٍ وطمع؛ تؤثر نفسها باللحم والطعام الفاخر، فعدم ثقة الشعب بالحكومة، وأنها لا تريد لهم الخير والمصلحة الجيدة، أفرز سخرية الشعب، واسترواحه إلى الضحك مصاحبًا لشعور الألم الداخلي؛ فيضحك الشخص ليظهر خلاف ما يبطن، يحاول أن يخبئ خيباته خلف ضحكاته، لاسيما إن كان الضحك فيه سخرية من أمر ما.

وترددت الكثير من الألفاظ السياسية والمصطلحات، مثل القضية المصرية، وتصريح ٢٨ فبراير الاستقلال– الخونة –سعد زغلول– ثورة يوليو، وغيرها.

فشدة احتدام الصراع بين خديجة وحماتها حول الاستقلال في المنزل وشئونه؛ جعلها مضربَ مثلٍ فكاهي للخلافات بين مصر وإنجلترا حول الاستقلال أيضًا، فعندما سأل فهمي خديجةً عن تطور الأمور وحالها مع حماتها، ردت عائشة أختها متفكهةً بلغة

(١) نجيب محفوظ، بداية ونهاية، دار الشروق: القاهرة، ص١٧١.

السياسة: "سوف يتحسن ما بين الإنجليز والمصريين قبل أن يتحسن مابينهما..."[١]، دلالة على عسر الوصول إلى اتفاق مرضي للطرفين؛ لشدة تمسك كلٍ منهما برأيه، حتى إنه من الممكن أن تتصالح الدول المتعادية قبلهما. إنَّ الضحك يلعب دورًا في التقليل من الآثار الناجمة عن المواقف الاجتماعية الشائكة؛ التي من الصعب حلها، فيكون الضحك ترياقًا ضد الألم العاطفي، والضيق النفسي، فالضاحك يريد أن يُشعر صاحبَه أنَّ الأمور البسيطة لا تحتاج إلى الكدر، هذه النظرية وجدتها عند عالم النفس البريطاني وليم مكدوجال (١٨٧١-١٩٣٨) الذي يرى أن الضحك تعبير عن اللذة، فكل المواقف التي جعلت الأشخاص يضحكون هي مواقف غالبًا غير سارة، ولكنا إن لم نضحك منها فسوف تكون مسببةً للضيق والكدر، فكان لابد من دفع الجدية والضيق بالضحك[٢].

ومن باب السخرية في عدم القدرة على الوصول إلى النصر والاستقلال، فقد مزج نجيب السياسة بالجنس، وغالبًا ما يفعل ذلك لدمج الهزل بالجدِّ، وحمل بعض الهمّ عن النفس.

فحينما دار الحديث عن الحرب والهزيمة والنصر .

" فقال عشماوي:

-كل شيء بمشيئة الله، لابد أن نهزمهم وإلا فقل على الدنيا السلام، فسأله حسني:

وإذا انتهى الموقف بحل سامٍ؟

فهتف العجوز الأعمش:

-أعوذ بالله.

وأراد أن يدلل على قدرة الله فقال:

-ربك كبير، أتصدّق أنني ضاجعت الولِيَّة ليلةَ أمس مرتين؟

فذهل الأستاذ حسني وهتف:

-مرتين.

-وحقِ كتابِ الله.

-عوفيت.. عوفيت ياعشماوي.

(١) نجيب محفوظ. بين القصرين، دار الشروق: القاهرة، ٢٠٢٠، ص٥٣٦.

(٢) انظر شاكر عبدالحميد. الفكاهة والضحك رؤية جديدة. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب،٢٠١٥،ص١٢٤.

– فلا تيأسوا من رحمة الله

وضحك حسني عاليًا..." (١)

فقد ربط السياسة بالعجز الجنسي، وأنَّ الله قادر على بعث الهمة، ونشر القوة في الأمة، كما حصل لي وأنا عجوز مع معاشرة أهلي مرتين في ليلة، وقد تكون مبطنة لسخرية أشدّ، وأنَّ غاية ما يمكن أن تفعله أمتنا إذا استيقظت أن تعاقر سفاسف الأمور مرات وكرات، وأنَّ المصريين باتوا عاجزين إلا عن كل سفساف رخيص، كل هذه الدلالات لدى نجيب تصور لنا مدى اليأس والاستهانة في القضايا السياسية، وعدم أخذها بجدية الحوار، وإنما تدار في سخريةٍ واستهزاءٍ، مثل الحوار الذي دار بين المنتخب السياسي إبراهيم فرحات الذي يبحث عن أصوات القبول في الحوارِيْ وأصحاب الشأن في القهاوي؛ فوعدهم بتحسين المعيشة، وتخفيض الأسعار، وبدعابة طلب منهم الحلوان إذا فاز بالانتخابات.

"فسأله الدكتور بوشي: الحلوان بعد ظهور النتيجة؟

فالتفت السيد نحوه وقال –وقد داخله شيء من القلق–:

– وقبل ظهور النتيجة أيضًا.

فخرج الشيخ درويش من ذهوله وصمته وقال:

– كالصداق له مقدم ومؤخَّر. إلا أنت ياست الستات فلا صداق لك؛ لأن حبك روحي من السماء"(٢).

فالسخرية من المرشح الانتخابي على الرغم من محاولاته استرضاءهم، ووعوده بتحسين الأوضاع، جعله محطَّ تفكّهٍ وتندُّرٍ من الشعب الذي ملَّ الانتظار، وفتكت به الخيبة، ولاذ بعدم أخذ الكلام والمواقف على محمل الجد، فيذكر لنا نجيب محفوظ موقف الفتى ذي الجلباب الذي يحمل إعلانات دوائية جنسية لحياة زوجية صحية، مستغلًا اجتماع الوفود مع المرشح فإذا فيه:

"حياتك الزوجية ينقصها شيء.

عليك باستعمال عنبر السطوري..

– سعادتك ب٣٠ مليمًا، والمحل مستعد للاستماع لملاحظات الجمهور، وضج المكان بالضحك مرة أخرى..." (٣).

(١) نجيب محفوظ. الحب تحت المطر، مكتبة مصر: القاهرة، د.ت، ص٣٦.

(٢) نجيب محفوظ، زقاق المدق، مكتبة مصر: القاهرة، د.ت، ص١٧٩.

(٣) نفسه، ص١٨١.

فهذا الموقف يعبر عن الجهل السياسي لدى بعض فئات الشعب المصري البسيطة، وعدم الاهتمام بالواقع، وأنَّ الجنس والحكومة صارا فرسي رهان بالنسبة لعدم المبالاة، فإحلال النكتة مكان الجدّ، دليل على أنّ الشعب جرب فلم ير فرقًا، فلاذ بالنكتة يتنفس بها من ضيق الواقع المؤلم.

وغالبًا ما تظهر هذه الدوافع المكبوتة في أوقات المزح والمرح، بمعنى أنها طاقة مقيدة؛ تسرح حينما يحين الوقت.

وينظر العالم النمساوي فرويد إلى أن النكتة بمنزلة القناع؛ القناع العدواني، أو الجنسي الذي يخفي خلفه الشخص حالات الإحباط واليأس، والإخفاق، ويرغب الراوي للنكتة في مشاركة الآخرين هذه المشاعر المكبوتة. (١).

ومن التفكه في أمور الدولة، وعرقوبية وعودها: الحوار الذي دار في حانة النجمة حول إغلاق الخمارات التي تعد ملاذًا للمتعة والترفيه.

"فقال رئيس المستخدمين:

–طول عمرهم يعِدُون بإخراج الإنجليز، وبفتح جامعة جديدة، وبتوسيع شارع الخليج، فهل تم شيء من هذا ياخال؟

وقال عميد ذوي المعاشات:

–لعل النائب مقدم الاقتراح قد شرب خمرًا زعافًا من خمور الحرب، فانتقم بتقديم اقتراحه"(٢)، فسوء الظن بالحكومة التي تنوي غلق الخمارات، جعل الشعب يعتقد أنها وعدٌ لا حقيقة له، كوعودها بطرد الإنجليز من مصر، وأنها لو صدقت فلعلّ هذا انتقام من مقدم الاقتراح لأنّه تورط في خمر سيئ، فأراد صبَّ جام غضبه على الخمارات.

فالحكومة لا تنظر لمصلحة العامة، بل لمصلحتها أولًا، فالحديث السياسي ووضع الحكومة المزري لا يقتصر على السكّير في الخمارة، ولا المثقف في المجلس، ولا الشيخ في الحارة، فهذا ياسين وهو يترنَّح في سُكْره يتفاخر بشخصية سعد زغلول صاحب ثورة١٩١٩، حيث كان الاستقلال والدستور من أهم مطامحها، فيقول: إنه شارك في الثورة، وذاك الزعيم شيَّع جنازةَ أخيه فهمي، وشاركهم العزاء، وأثناء تباهيه وتفاخره يأتيه السؤال:

(١) انظر شاكر عبدالحميد، ص١٣٦.

(٢) نجيب محفوظ، السكرية، دار الشروق: القاهرة، ط١٢، ٢٠١٩، ص٣٤٧.

"وسعد زغلول ألم يقل لك شيئًا في جنازة أخيك؟

فأجاب عنه المحامي قائلًا:

– قال له : ليتك كنت الشهيد أنت، وضحكوا... وضحك معهم ياسين في أريحية"(١).

فهذا البلادة التي وصلت بأخي الشهيد وأصحابه إلى التفكّه في وقت عزائه، تصوّر كثرة الشهداء في تلك الثورة وما بعدها، وفشوّ الاغتيالات الحاصلة، والخيانات المدبَّرة، مما زرع البلادة في مشاعر الناس، حتى أصبحت جامدة في الحوارات، جلاميد في الأحزان، لا تفرّق بين موت وحياة، ولا فرح وحزن، ولعلَّ الضحك هنا يعود إلى نظرية التناقض في المعنى التي أشار إليها شاكر عبدالحميد، وتعدُّ من نظريات التحليل النفسي التي تستثير الفكاهة والضحك، من خلال وجود واقع متناقض، وذهاب الأخيار وبقاء الأشرار، فياسين لا فائدة ترجى من حياته، بل هو حياته دمار على المجتمع بسكره وعربدته، وما يزال حيًا يرزق، بينما أخوه فهمي الذي كان مثقفًا نافعًا لمجتمعه، مناضلًا ضد الإنجليز داعمًا لوطنه يموت، وهذا بقدر كونه قدحًا في الشرع، فهو أيضًا محاولة لإبراز الحال التي عليها مصر حكومة وشعبًا.

بل إنَّ البعض قد يتفكَّه ويتندَّر بالشهيد نفسه، ويسخر من موقفه البطولي الوطني، بل إنَّ السخرية قد طالت تاريخ مصر وحضارته، واتهامه بأنه لا يملك إلا القبور والجثث، يتحدث حسين ويقول:

–نحن ذاهبون إلى زيارة قرافة جدنا الأول ؟

فقال كمال ضاحكًا:

لنقرأ الفاتحة بالهيروغليفية.

فقال حسين ساخرًا:

– وطن أجلّ مخلفاته قبور وجثث... (وهو يشير إلى الهرم) انظر إلى الجهد الضائع...

قال كمال بحماس

– ذلك الخلود!..." (٢).

(١) نفسه، ص٣٥١–٣٥٢.

(٢) نجيب محفوظ، قصر الشوق، دار الشروق: القاهرة، ٢٠١١، ص٢٢٨.

فيروي لنا الراوي اختلاف الثقافات الفكرية، وتباين المعتقدات الوطنية بين فئتين؛ من يرى أنها الخلود والتاريخ الحضاري، والآخر يراها مجرد جثث لم تزد مصر فخرًا ولا قداسة، ولا تعد من الوطنية في شيء.

والظاهر أن المراد بالخلود التهكم، وأنَّ مصر أصبحت ترى الموت الذي هو نقيض الحياة هو البقاء والخلود، فهي تسعى جاهدة لزيادة أعداد الموتى لأجل الخلود!!

وبرز اسم سعد زغلول كثيرًا في روايات نجيب محفوظ، وأغلبها تقديس له، ورفعة لشأنه؛ حتى لو كانت ضمن مجال التفكه، فهذا كمال حينما يتعجب من رطانة عايدة بالفرنسية، وجمال الأجواء، ويقول –وهو يتأمل ما حوله–:

– جميل حقًا سبحان الله العظيم!

فقال حسين ضاحكًا:

– إنك تجد دائمًا وراء الأمور إما الله، أوسعد زغلول"[1].

فهنا لا وجه للمقابلة ألبتة، ولا المقال مناسب للزج باسم سعد زغلول في هذا الحوار، ولكن يبدو أن الكاتب يريد أن يوصل لنا مدى تشبع الشعب بالسياسية، وتأثرهم بها حتى في الحوارات البعيدة عن أجواء السياسة، أو قد يكون الكاتب نفسه تشبع من السياسة وأخبارها، وشاركته في مؤلفاته وأدبه.

وارتبطت الثورة ١٩١٩ بالاستقلال والدستور، فنجدها كثيرًا ما تستخدم للتنكيت، فعلي عبدالرحيم يتساءل عما عناه ماكدونالد لقوله:" إنه يستطيع أن يحل القضية المصرية قبل أن يفرغ من فنجان القهوة الذي كان بيديه" فيجيبه أحمد عبدالجواد: بأن ذلك يعنى أن الإنجليزي يشرب فنجان القهوة –في المتوسط– في نصف قرن"[2].

وهو بهذا يعبر عن طول الانتظار، وزيف الوعود، وكثرة المفاوضات المتعسرة، ويصوّر لنا المفارقة الساخرة والنفاق الحاصل في المجالس العامة، وادعاء المثالية، والعكس البارز في جلسات الأصحاب الخاصة، فكأنه يخبرنا أن هذا ديدن الساسة، فعندما قال أحمد عاصم في رواية القاهرة الجديدة:

– لن تظفر مصر باستقلالها أبدًا...

– استبدت بها عادة الحكم الأجنبي!

فضحك عفت وقال:

(١) نفسه، ص٢٢٩.

(٢) نفسه، ص٩١.

– وما حاجة مصر إلى الاستقلال؟ أما الزعماء فيتعاركون على الحكم، وأما الشعب فغير أهل للاستقلال"[١].

فكأنه ينفي التطور عن مصر، وأنها اعتادت الاستعباد والاستعمار، حتى صار الاستعمار أفضل لها من أبنائها، ثم يعود (عفت) الأرستقراطي ليبين تناقضه وتناقض السياسة في الشعارات الرنانة، حينما قال له محجوب الذي يبحث عن السمعة الإيجابية لتفكيره بالاشتراك في جمعية الإخوان المسلمين، فقال مبتسمًا:

"– ألا يسوؤك أن تقول هذا عن قومك...!

– فضحك عفت مرة أخرى وقال بصوت مرتفع:

– لا تجري في عروقي نقطة دم مصرية واحدة.

وأحدث قوله عاصفة من الضحك...

فما قولك في خطبة الباشا والدك في مجلس الشيوخ... التي دافع بها عن الفلاح دفاعًا وطنيًا مجيدًا؟!

فقهقه عفت وقال كالساخر :

–هذا في مجلس الشيوخ، أما في البيت فكلانا متفق أنا ووالدي على أن أنجع سياسة مع الفلاح هي: السوط. وضحك الحاضرون من الجنسين ضحكًا عاليًا." [٢].

فلم يعد يتعجّب الحاضرون من تناقضات السياسة، ولا قادة الأحزاب، فبدل التعجب والاستنكار، كان الضحك والقهقهة، وكأن الأمر أصبح من المعتاد،فقد عدم صاحب الضمير الحي، والوعد الحق، وقد يتولد الضحك من الخداع والتلاعب، فعندما يمثل الشخص أنه مخلص لوطنه عند أصحابه، يتملص من الوطنية ويبين خداعه للشعب، فيحدث الضحك والسرور لهذا الفعل غير الأخلاقي.

فحديث سرحان البحيري وزميله السابق رأفت أمين حول الوفد والوطنية، يثبت لنا بعض أفكار طه حسين حول تناقضات قادة الأحزاب، ومصدّري الشعارات .

" لا أصدق أنك أنت بالذات تبرأت من وفديتك؟

فعاوده الضحك وهو يقول:

وأنت لم تكن وفديًا مخلصًا، واحدة بواحدة، والبادي أظلم ...

(١) نجيب محفوظ، القاهرة الجديدة، مكتبة مصر، د.ت، ص١٨٦.

(٢) نفسه، ص١٨٦.

ثم لكزني بكوعه متسائلًا:

ولكن أأنت اشتراكي مخلص..." [١].

حتى الولاء للوفود، وللحزب المنتمي إليه؛ أصبح حسب المصالح، بمجرد أن تنتهي يرمى كالحذاء المرقّع، ففي لحظة كانوا أعداء للوطن، وفي اللحظة التي تليها ينقلبون أصحاب وطنية.

فلمحة الخذلان والانكسار تجاه مصر، وجيشها ورؤسائها، جعلا إبراهيم شوكت يقارن بين والدته الضعيفة التي شبهها بمصر ضمنيًا، وزوجته المستبدة خديجة وشبهها بإنجلترا، وكلاهما يبحث عن الاستقلال، فيقول لأبنائه في تهكم:" أمكما قوية كإنجلترا، أما أمي فرحمة الله عليها" [٢]. خلق من الاستعلاء والسيطرة لدى زوجته ما جعله محتوى للفكاهة، يتندر به مع أبنائه.

فبذلك تصبح معاملة خديجة وجبروتها مثل معاملة إنجلترا لمصر المستضعفة، صاحبة الحق والأرض.

ومع بزوغ الحقبة الناصرية، ظهرت مصطلحات جديدة كالحراسة، والأزمة الاقتصادية، والاشتراكية ...

فيسخر طلبة مرزوق من إجراءات الحراسة التي تقام على الشعب وممتلكاته، بدل من أن تسخّر لما وضعت له في الأساس، فيميل عليه عامر وجدي متسائلًا:" أين لباقتك ياعزيزي؟ يجيب باستهانة وسخرية:" موضوعة تحت الحراسة!" [٣].

ويعيد ذكر الحراسة في موضع آخر من الرواية، حينما كان يستمع إلى حفلة أم كلثوم، ويميل هامسًا في أذن حسني علام : " من نعم الله أنهم لم يصادروا أذني!" [٤].

فالسخرية من الواقع السياسي لاسيما في تلك الحقبة، تبين القمع الدكتاتوري الموجود، ومصادرة الممتلكات،حتى وصل بالناس إلى حمد الله على بقاء أعضائهم وحواسهم، وعدم إقامة الحراسة عليها. الفكاهة في ضوء نظريات التناقض تؤكد أهمية العناصر المعرفية، وأنها عملية جمع أو تركيب تصورين، يكونان في الظروف العادية متباعدين، ويجمع بينهما بطريقة مثيرة للدهشة وغير متوقعة[٥].

(١) نجيب محفوظ. ميرامار، دار الشروق: القاهرة، ط٧، ٢٠١٨، ص١٧٦.

(٢) نجيب محفوظ، السكرية، ص١٥٣.

(٣) نجيب محفوظ، ميرامار، دار الشروق: القاهرة، ٢٠٠٦، ص٣٨.

(٤) نفسه، ص٨٦.

(٥) انظر شاكر عبدالحميد، ص١٤٦.

وبعد حوار سياسي طويل ينتهي بتفكّه حول طريقة زواج حسن حمودة الذي اقترح عليه صفوت أن يكون الإعلان كالتالي:

ح.ح. محام ناجح ، غني، من أصل أرستقراطي، في الأربعين من عمره، أمريكي الهوى، إسرائيلي الرؤية، يرغب في الزواج من فتاة في العشرين، مثقفة عصرية، جميلة.

فواصل حسن ضحكه فقال:

... سيجيئني الردّ من وزير الداخلية"[١]، وهذا من المبالغة في تصوير تدخلات الدولة في الشعب، وكبح رغباتهم الشخصية، وتسييرهم وفق رؤيتهم.

وقد يكون لدى نجيب محفوظ أهداف أو أقنعة رمزية للحكايات السياسية في رواياته التي ناقشها تارة بجدية، وتارة بفكاهة وسخرية، مثل رواية الكرنك نشرت عام ١٩٧٤، تحدث فيها عن شخصيات سياسية، واعتقالات واغتصابات، وتناقض للسلطات والمخابرات، والشعارات الاشتراكية والوطنية، " كان مركز القوى الرئيس في فلم الكرنك هو (خالد صفوان) وهو مدير لسجن ضم عناصر شتى من المواطنين المصريين، وتمت العمليات التي أداها الفلم، والخاصة بالممارسات الإرهابية، وعند عرض الفلم أقام صلاح نصر مدير المخابرات السابق دعوى قضائية ضد المؤلف (نجيب محفوظ)، والمنتج ممدوح الليثي، زعم فيها أن خالد صفوان في فلم الكرنك إنما المقصود به هو بالذات" [٢]، وأحدث هذا الفلم

والرواية ضجة كثيرة حول الرموز وتحليلاته، فكان هناك من يرى أن لها أهدافًا سياسية غير أدبية من تأليفها، حتى وإن اختلفت نهاية الفلم عن الرواية –كما سيأتي لاحقًا–.

وقد تفرط الشخصيات المصرية في التعبير عن رفض الممارسات السياسية بطريقة فكاهية؛ كآلية دلالية على الرفض والسخط والتناقض بين الأقوال والأفعال، وتعويض عن اليأس والعجز عن إيجاد حل لهذه الأزمة، فجاءت الفكاهة والضحك من الواقع المأساوي سبيلًا لإخراجهم من الحزن والألم .

(١) نجيب محفوظ، الحب تحت المطر، مكتبة مصر، د.ت، ص١٥٨.

(٢) درية شرف الدين، السياسة والسينما في مصر، ص١٤١.

- **وظائف الفكاهة:**

للفكاهة وظائف وفوائد عدة؛ ينتفع منها الفرد والجماعة،وقد تكون نفسية ترفيهية، وقد تكون اجتماعية تربوية "ولذلك فهي تعبر دائمًا عن اتجاهات اجتماعية، غالبًا ماتكون في صورة سلبية نقدية، ترتبط بالأمور الجنسية، أو السياسية، وفي معظم هذه الحالات –الجنسية والسياسية– هي عدائية الطابع، حيث تتضمن نقدًا، أو إشارات ضمنية لاذعة، فالنقد يتضمن رغبة في الهدم لعيوب نراها قائمة، ونتمنى أن تقوم أمور أخرى مكانها، أو لأمنيات نراها صعبة، ولحالات نراها عبثية، أو مستحيلة"(١).

ومن خلال ما مرّ من حوارات فكاهية، نستنتج عدة وظائف وأهداف صيغت من أجلها الضحكة والنكتة، أول هذه الوظائف التي وجدت بكثرة في الخطاب الفكاهي عند نجيب محفوظ هي:

١-التخفيف من ضغط القيود الاجتماعية: وخاصة ما يتعلق بالجنس، واحترام الأديان، والالتزام الأخلاقي، فعندما يتحدث إبراهيم عن ابنه المتدين ويتفكه حول ذلك، ليس الغرض منه الاستهزاء، إنما التخفيف من قوانين الالتزام، والمطالبة باللين فيها، فيقول لزوجة ابنه :" وبالأمس قلت لها: زوجك شيخ المؤمنين، ولكن ينبغي أن تؤجلي الصلاة والعبادة إلى حسين! وضحكوا جميعًا، وقال أحمد مخاطبًا أخاه:

- لا ينقص عروسك إلا أن تضمها إلى شعبة الشيخ علي المنوفي.

فقال العريس:

- إن شيخنا أول من نصحني بالزواج.

فقال أحمد مخاطبًا أخاه:

لعل الإخوان يعتبرون الزواج مادة من دستورهم السياسي!" (٢).

فحزب الإخوان حزب متدين، له قوانينه والتزاماته، والبعض منهم يغلو في تطبيق قوانين المرشد، فكان التهكم لتخفيف هذه الوطأة المثقلة، حتى إن الالتزام الأخلاقي للمجتمع، والكف عن الأحاديث الخادشة للحياء والمنافية للعادات والدين، مثل: الجنس، يعدّ من ضمن القيود الاجتماعية التي تحاربها، أو تخفف منها الفكاهة، فما أكثر الحديث عن الجنس في روايات نجيب محفوظ، وكأنَّه يصور للقارئ أن نصف الشعب يمارسها،

(١) شاكر عبدالحميد، الفكاهة والضحك، ص٣٩١

(٢) نجيب محفوظ، السكرية، ص١٥٤.

وليس مقتصرًا على فئة معينة؛ فياسين الذي يمثل السكر والمجون، وفي المقابل كان أخوه مثقفًا، ولكن سرعان ما وقع فيما وقع فيه أخوه من قبل، فدار حوار فكاهي في بيت المعشوقة التي يترددون عليها، حينما صادف ياسين أخاه كمال المثقف، فقال:

يا ألف ليلة بيضا... يا ألف نهار سلطاني.

وقهقه عاليًا...

وعند ذاك جاءت وردة وهي تسأل ياسين:

- صديقك ؟

- فقال ياسين ضاحكًا:

- بل أخي ابن أبي وأ... كلا ابن أبي فقط، أرأيت أنك معشوقة الأسرة يابنت الذين...!" (١).

ومن المعلوم أن المجتمع المصري مجتمع محافظ، يمقت بيوت الدعارة، وينتقص من أصحابها، ولكن من باب التخفيف والتنفيس عن المشاعر المتراكمة، والطاقات الغريزية التي يجب أن تفرغ، ولو من باب الفكاهة، لجأ لها نجيب، فهي أسلم للفرد من الكبت الغريزي النفسي.

ولم يقف ضحك ياسين وسخريته من أخيه المثقف عند هذا الحد،فعندما أخبره كمال أنه لم يعرف طعم الوسيكي إلا قبل شهرين، فهو مبتدئ في الشرب، جعل هذا الابتداء محل سخرية وتندر عند ياسين فقال:

"– شهرين !! يبدو أني احترمتك أكثر مما تستحق. وضحكا معًا" (٢).

فالاحترام هنا يصاغ بشكل مناقض للواقع الاجتماعي، الذي يحترم بالفعل الملتزم الخلوق، ويسفّه الماجن السكير، " فالفكاهة صمام أمان للتعبير عن الأفكار المرتبطة بجوانب ترتبط أكثر من غيرها بالقيود الاجتماعية، وتتعلق هذه الجوانب بشكل خاص بالسلوكيات الغريزية، والعدوانية، والجنسية، وهي السلوكيات التي تنظمها المجتمعات على نحوٍ أخلاقي وديني واجتماعي، وتحاول توفير السبل المناسبة للتعبير عنها، فالإخماد الكامل لها هو غير الطبيعي"(٣).

فكانت الفكاهة البابَ المباح للتنفيس عن الممنوع المرغوب في المجتمع.

(١) نجيب محفوظ، قصر الشوق، ص٤٦٤.

(٢) نفسه، ص٤٦٦.

(٣) شاكر عبدالحميد، الفكاهة والضحك، ص٣٩.

١- التخفيف من الخوف والقلق والحزن:

جاءت الفكاهة لمواجهة الشعور الوجداني والنفسي المتمثل في الخوف من المستقبل، والقلق من الحاضر، والحزن على الماضي، ومواجهة الإحباط واليأس، الذي نتج عن الأحداث السياسية والاقتصادية العارمة في البلد، فالضحك يخفف التعب النفسي، ويهوّن الحزن والقلق، فتسأل سمارة في ثرثرة فوق النيل أصحابها:

- "ألا يهمكم حقًا شيء مما يدور حولكم؟
- قد ينفعنا أحيانًا كمادة لضحكنا"(١).

فجعلوا الفكاهة هروبًا من المواجهة للأحداث الحاصلة؛ التي يئس الشعب وأحبط تجاه وجود حل لها، فحلت الفكاهة مكان الجد، فقرنفلة واجهت قلقها حيال الاعتقالات السياسية الجائرة لأصحابها بالضحك، ودعت الجميع إليه؛ لأنَّ الموقف ساخر، " ثم استرسلت في الضحك طويلًا حتى دمعت عيناها، وجعلتنا ننظر إليها من مجلسنا صامتين.

-اضحكوا.. اضحكوا..

-وجففت عينيها بمنديلها الصغير وواصلت:

-اضحكوا، جفت الدموع، ولكن لنا الضحك، الضحك أقوى من البكاء وأسلم عاقبة، اضحكوا من صميم القلب. اضحكوا حتى يسمعنا أصحاب الحوانيت بشارعنا السعيد..." (٢).

دعتهم إلى الضحك؛ لأنه لا ملجأ لها في مواجهة هذه الظروف إلا هو، فإنه أقوى من الجانب الآخر؛ البكاء الذي يجلب الهم والحزن، فالضحك أقوى معززٍ منماعي للعواقب السلبية.

" فالضحك يجعلها تعلو على المواقف المربكة، وعلى المخاوف المقلقة، وعلى الصراعات المهلكة، الضحك يعني أننا نسيطر على المواقف، ونعلو عليها، ونتجاوزها، ولعل هذا ما يفسر كثرة النكات والتعليقات المرحة التي تدور حول المرض، الكوارث، الموت..." (٣).

(١) نجيب محفوظ، ثرثرة فوق النيل، دار الشروق: القاهرة، ٢٠١١، ص٥٠.

(٢) نجيب محفوظ، الكرنك، دار الشروق: القاهرة، ط٥، ٢٠١٨، ص٣٥.

(٣) شاكر عبدالحميد، الفكاهة والضحك، ص٣٩.

يواجه ياسين قلق أخته خديجة، وتطيرها من موت السيد رضوان في يوم زفافها بالضحك والازدراء فقال لها:

"– أبى السيد رضوان أن يبقى في الدنيا بعد رحيلك عن جواره...

– اسكت إني متطيرة من موت السيد رضوان في يوم زفافي.

فقال ضاحكًا:

– لا أدري أيكما جنى على صاحبه؟

ثم – وهو يواصل الضحك–:

– لا خوف عليك من موت الرجل، لا تشغلي فكرك به، ولكني أخاف عليك من لسانك، فهو الأحق بأن تتطيري منه، ونصيحتي التي لا أملّ ترديدها أن تتقيه في شراب مشبع بالسكر حتى يحلو، ويصلح لمخاطبة العريس..." (١).

فقد حول مسار التطير عند أخته إلى مسار التندر والفكاهة لتغير نظرتها، وجعلِه أقل تأثيرًا عليها في هذا اليوم المهم، إذ التفكير بشكل معاكس للأفكار السلبية يكسب الأفراد المرونة في التعامل مع العقبات والمصائب، ويوسع الأفق في النظر إلى الجوانب الإيجابية والجميلة، وبالتالي ترتاح النفس وتطمئن.

الفكاهة تعمل على التخفيف من التوتر في الحوارات؛ فتأخذ منحى الضحك بدل الغضب، فعندما اشتد النقاش العائلي في (بين القصرين) حول تأجيل زواج عائشة قالت الأم:

"– أعلم أن كل فتاة ستتزوج اليوم أو غدًا، ولكن هناك اعتبارات لا ينبغي إغفالها.

وعاد كمال يسألها:

– وهل ستتزوجين أنت أيضًا يانينة؟

وضج الجميع ضحكًا فخفف هذا من حدة التوتر..." (٢).

فاستغلال النكتة والدعابة في مثل هذه المواقف أنجع وسيلة للخروج من حدة النقاش إلى المرونة والتقبل لرأي الآخر، أو الاقتناع دون اللجوء إلى الخلافات والمشاحنات.

(١) نجيب محفوظ، بين القصرين، ص٣٧٣.

(٢) نفسه، ص١٨١.

فالضحك في مثل هذه المشاعر (القلق، الخوف، التوتر) لا يُنهيها، بل يخفف منها، ويساعد الإنسان على تجاوز أزمته، والتخفيف من الآثار السلبية، فالضحك يعزز جهاز المناعة لديه، وبالتالي يواجه مشاكله بأقل الخسائر والتغيرات الفسيولوجية الإيجابية، التي تحدث لدى الإنسان في حال ممارسته الجدية حال الضغوط الاجتماعية والنفسية، فالفكاهة والضحك عادة ما تصاحب الأكسجين الوفير، وبالتالي ينشط الجسم والقلب، ويسعد الإنسان في هوان أمره وتجاوزه.

٢- الإصلاح الاجتماعي والتربوي من خلال النقد والضحك:

من خلال الضحك والفكاهة يكون مدخل النقد والاستياء من الأوضاع، ومحاولات الإصلاح، ولقد وجدنا الكثير من الانتقادات السياسية، والاجتماعية، والأخلاقية، والعادات التي تربى عليها الآباء والأجداد، فأتى الأجيال من بعدهم، وأظهروا امتعاضهم منها، على سبيل المثال: استياء أحمد من حياء نعيمة وكان يسخر منها بقوله:

" – الحياء الكاذب

...

فاستدرك قائلًا:

الحياء موضة قديمة، ينبغي أن تتكلمي وإلا ضاعت منك الحياة.." (١)

أحمد يمقت حياء البنت التي لا تعي حقوقها، وتترك القرار لوليها من باب: إن البنت لا رأي لها، ويجب أن تخجل من مناقشة أمور الزواج، فيحرض نعيمة على أخذ حقوقها، والتحدث بوضوح، فلما قابل الاعتراض من والدته وخالته أخذ يصفهم بطريقة ساخرة:

- "أراهن على أن أسرتنا متأخرة عن العصر الحديث بأربعة قرون!
- فسأله عبد المنعم ساخرًا:
- لمَ حددتها بأربعة؟
- فقال دون اكتراث:
- على سبيل الرأفة!" (٢)

(١) نجيب محفوظ، السكرية، ص٣٥.

(٢) نفسه، ص٣٥.

هم يستحقون أكثر من ذلك، ولكن بطريقة فكاهية رأف لحال أسرته، ولم يرد انتقادهم بقسوة!

ومن هنا فإن للفكاهة والسخرية من العادات البالية –في نظر أصحابها– وظيفة اجتماعية نافعة؛ لاعتبارها أداة تعبيرية سليطة تجاه المخالفين للتقدم والوعي بالحقوق الإنسانية، لاسيما المرأة في ذلك الوقت.

إضافة إلى طرح قضية حياء البنت التي هضمت حقوقها، طرح نجيب أيضًا من جانب آخر نقيض الطرح السابق تمامًا وهو: قوة المرأة وتسلطها باللسان واليد بطريقة فكاهية، وكانت من خلال شخصية المعلمة حسنية الفرانة، وزوجها المستضعف جعدة؛ فهي لا تكفّ عن ضربه (بالشبشب)، فيتلقى بعدها السخرية والتندر ممن حوله، فعندما كان يتحدث عباس الحلو وعم كامل، " قطع عليهما الحديث صوت يشبه العواء، فنظرا إلى داخل الزقاق فرأيا المعلمة حسنية الفرانة تنهال على زوجها جعدة بالشبشب، والرجل يتقهقر أمامها لايملك لها دفعًا، وصراخه يعلو حتى طبق الآفاق، فضحك الرجلان وصاح عباس الحلو مخاطبًا المرأة:

- العفو والرحمة يامعلمة.

ولكن المرأة لم تمسك حتى ارتمى جعدة عند قدميها باكيًا مستعطفًا.

ولبث عباس ضاحكًا وهو يقول لعم كامل:

- ما أخلق جسمك بهذا الشبشب حتى يذوب شحمه!" (١).

فالمجتمع المصري وغيره من المجتمعات، يرفض ويستنكر وجود المرأة المسترجلة، ذات الصوت العالي، والجرأة الوقحة، فعالج هذه الظاهرة من خلال المواقف المضحكة بين الزوجين وأهل الزقاق في تلك الرواية.

" والواقع أن الضحك هو السيف المصلت الذي تسلطه الجماعة على رقاب الخارجين على معاييرها الجمعية، وآدابها العامة، وكل من تحدثه نفسه بالخروج على قوانين الجماعة، وأساليب سلوكها، فإنه لابد من أن يستهدف سخريتها اللاذعة وضحكها الموجع. وليس أدل على كون الضحك أداة اصطنعها المجتمع لتأديب أفراده... فهي ماتكاد تلمح سلوكه الغريب حتى تصب على رأسه النكات صبًا" (٢).

(١) نجيب محفوظ، زقاق المدق، دار الشروق: القاهرة، ٢٠٠٦، ص٣٨.

(٢) زكريا إبراهيم، سيكولوجية الفكاهة والضحك، مكتبة مصر، د.ت، ٢٠١٢، ص٣٨.

فالمجتمعات الشرقية والعربية – في ذلك الوقت– اعتادت على أن الرجل له سلطته وقوته التي يفرضها على المرأة لا العكس من ذلك، فحينما شاهدوا النقيض لذلك، كانت السخرية والتهكم ملجأهم للاستنكار والتعجب.

ومن القضايا التي ناقشها نجيب محفوظ من خلال الفكاهة: فلتات اللسان، والكلمات البذيئة، والشتم واللعن المنتشر بين طبقات معينة من المجتمع، وهي عبارات غير أخلاقية، لا تليق بالمسلم المكرم، حينما دار الحوار بين المعلم وابنه حسين حول زواجه من فتاة محترمة، قال له والده ساخرًا متهكمًا على كلمة جنتلمان – التي ذكرها سابقًا–:

- بنت جلمان.
- بنت ناس طيبين.
- ولماذ لاتتزوج بنت كلب كما فعل أبوك؟"[١].

وهذه الألفاظ وغيرها من الألفاظ التي مرت بنا، وإن كانت حساسة وخادشة للحياء، إلا إن المؤلف يطرحها في الحوارات بين الشخصيات البدائية الفقيرة ذات الحظ القليل من العلم، والعدائية للمجتمع، الناقمة، دائمة الاعتراض " ونجيب محفوظ أديب واقعي، ومن واجباته أن يكون ذا نظرة متكاملة إلى العالم الذي يحيا في داخله، نظرة تعبر عن فهم مترابط لهذا الكون وأطواره، وبشكل خاص ينبغي أن يتضح هذا جليًا في فهمه لمجتمعه الخاص، وتجاوبه معه" [٢].

وعلى الرغم من وجود اعتراضات كثيرة لهذه الألفاظ، إلا أننا نرى أن الرواية هي مرآة المجتمع وانعكاسها، مستمدة أحداثها وشخصياتها من المجتمع المصري، ولو أن مثل هذه الألفاظ لم تكن دارجة لما وجدناها بكثرة في روايات نجيب محفوظ، فحينما يقول صاحب ياسين:

"لا أعرف شعبًا كالشعب المصري ولعًا بالخوض في أعراض الأمهات..." [٣].

لم تكن هذه العبارة من فراغ، إنما شعور المؤلف بكثرة الشتائم والألفاظ السيئة في الحياة اليومية للشعب المصري؛ فجعلها ضمن القضايا التي عالجها وسردها في رواياته، وكان أصحابها من طبقات متدنية في المجتمع، أما أصحاب الثقافة والعلم والطبقات العليا فلهم ألفاظهم وحواراتهم الراقية.

(١) نجيب محفوظ، زقاق المدق، ص١٣٦.

(٢) محمود أمين العالم، عبدالعظيم أنيس. في الثقافة المصرية، دار الفكر الجديد: القاهرة، ١٩٥٥، ص٢٨.

(٣) نجيب محفوظ، السكرية، ص٣٥٢.

٣- ومن الوظائف للفكاهة: التلاطف والتودد بين الجماعات، وخاصة الجلسات العائلية والأصحاب وزملاء العمل، وإزالة الكلفة والتحفظ بين الغرباء، وإدخال الفرح والسرور على النفس، ولهذا أمثلة كثيرة خاصة في (الثلاثية)؛ لما لها من جلسات بين الأصحاب مثل : السيد أحمد عبدالجواد وأصدقائه، أو ياسين وأصدقائه. وحوارات عائلية مثل: قفشات خديجة مع أخوتها وزوجها، فعائشة تصف خديجة بطريقة فكاهية خفيفة:

- لاعيب فيها إلا لسانها !... ألم تجربيه يازينب؟

فما تمالكت أن ضحكت قائلة:

- لم أجربه الحمدلله، ولكني سمعته وغيري يجربه.

وتعالى الضحك، وخديجة أولى الضاحكات..." (١).

مريم زوجة ياسين جديدة على العائلة، فكانت هذه الفكاهة التي تضفي على العائلة روح المرح والتقبل للآخر، وإزالة الكلفة في الحوار والتعامل.

كانت هذه الوظائف التي وجدناها عند نجيب محفوظ، على الرغم من وجود وظائف كثيرة للفكاهة.

عرضنا في هذا البحث مجموعة من الفكاهات التي وجدناها في روايات نجيب محفوظ، وبوبنا بعضها وفسرناها وفق السياسة ودرسنا الوظائف ، فقد كانت الفكاهة هي الوسيلة المتخفية لنقد المجتمع والسلطة الأمنية، والحكومة، ونقد الظلم الواقع على مصر وشعبها من حكامها، ومن الاحتلال، ومثلت الفكاهة جانبًا آخر من جهل المجتمع بحقوق المواطن والمرأة خاصة، وعبث الماجنين في بيوت الدعارة، والسكر والمخدرات؛ نتيجة لإهمال البلد وانفلاتها؛ وبغية للتنفيس عن حال الشعب.

وكان الضحك وسيلة لنقد الأفكار والشعارات والأحزاب التي رسمت لها ثقلًا زائفًا، وكانت في النهاية لاشيء، بل استغلها أصحاب المصالح والانتهازيون، وفي أقرب فرصة تخلوا عنها.

فالحوارات ليس دورها فكاهيًا فقط، وإنما قد تكون توريات هزلية، لها وظيفة تؤديها،كما تعبر عن فكر الكاتب الذي يضمن بذلك عدم المسائلة وتحمل المسئولية، فالفكاهة بشكل عام تؤدي دورها المراد بطريقة لطيفة، خفيفة على النفس، تضمن عدم تفرقة الجماعات، وشحن القلوب.

(١) نجيب محفوظ، بين القصرين، ص٣٧٢.